الحصار العثماني الثاني لـ(فيّنا) عاصمة الهابسبورك النمساوية سنة ١٦٨٣

سيّار كوكب علي الجميل*

* حصل على الدكتوراه في تاريخ أوروبا والمشرق العربي (الفترات الحديثة) من جامعة سانت أندروس الاسكتلندية عام ١٩٨٣ .
* أستاذ مساعد لتدريس تاريخ أوروبا ومادة الحضارة والميثودولوجيا دائرة علم التاريخ ــ جامعة وهران ــ الجزائر .

الملخـــص

يعتبر الحصار العثماني الثاني لـ (فيّنا) عاصمة الهابسبورك النمساوية (١٧ تموز (يوليو) – ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٦٨٣ م) ، أحد أبرز الحوادث التاريخية العظمى والمهمة خلال القرن السابع عشر . أما الحصار العثماني الأول ل (فيّنا) الذي قاده السلطان سليمان القانوني (٢٧ أيلول (سبتمبر) ــ ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٢٩م) فقد اعتبر متّوجا للأعمال الحربية الكبرى للعثمانيين في أوربا ، عندما كانت الامبراطورية العثمانية قد وصلت إلى أقصى قوتّها في النصف الأول من القرن السادس عشر .

دخلت الامبراطورية العثمانية بعد القرن السادس عشر مرحلة الدفاع ثم الإحباط والانحدار . لقد غطّت الحرب العثمانية مع الامبراطورية النمساوية الفترة التاريخية ١٦٨٢ ــ ١٦٩٩ ، وكانت حرباً دفاعية فيما عدا الاستثناء الوحيد المتمثل في الحملة العثمانية الكبرى ضد الهابسبورك ، عندما قاد الوزير الأعظم قره مصطفى باشا جيوشه وحاصر فيّنا ، العاصمة الاستراتيجية في قلب أوربا .

كان الوزير الأعظم قره مصطفى باشا (أخو الوزير الأعظم الشهير أحمد باشا الكوبرلي بالرضاعة) ، غير ذي كفاءة ادارية متميّزة ، ولكنه كان رجلا طموحا إلى أبعد الحدود .. وعليه فقد أعان الأمير ثوكلاي ، ونصبّه بأمر من السلطان ملكا على هنغاريا ضد الامبراطور النمساوي ليبولد الأول .

قبل ثلاثمائة سنة بالضبط .. وفي صيف سنة ١٦٨٣م ، تقّدم الجيش الرئيسي للامبراطورية العثمانية تحت قيادة الوزير الأعظم قره مصطفى باشا مع تجهيزاته العظمى والممتازة ، وحاصر (فيّنا) . كان الجيش العثماني يتألف من فصائل الانكشارية والسباهية وتاتار كرميا (القرم) ، إضافة إلى الهنغاريين العصاة المنتمين إلى الحركة الوطنية الهنغارية ضد الهابسبورك .. وكان الملك الهنغاري ثوكلاي خادما لأعتاب السلطان العثماني محمد الرابع (١٦٤٢ ــ ١٦٩٣م) .

خلال الحصار العثماني العظيم ، كانت العاصمة (فيّنا) على قاب قوسين أو أدنى من السقوط نظرا لفقدانها القدرة على المقاومة ، ولكن الأوضاع انقلبت كاملة رأسا على عقب خلال أسبوع واحد فقط ، فقد قدم جيش أوربي مشترك لانقاذها . وكانت المعركة الدموية الفاصلة في يوم ١٢ ايلول (سبتمبر) قرب العاصمة فيّنا .. أعقبها فشل الجيش العثماني في السيطرة عليها . وبذلك فتحت صفحة جديدة في تاريخ العلاقات السياسية بين العثمانيين وأوربا .

لقد أسهم كل من السلطان العثماني محمد الرابع ووزيره الأعظم قره مصطفى باشا من خلال حصارهما العاصمة النمساوية (فيّنا) وبشكل كبير باسقاط قوة الامبراطورية العثمانية وهيبتها أكثر من أي قادة عثمانيين آخرين .. وتمثل ذلك في حدث تاريخي عملي ــ حركي مرير واحد في التاريخ . فقد أثبتت التجارب التاريخية لهما كقادة سياسيين عثمانيين الاعتقاد عندهما بأن ليبولد الأول إمبراطور النمسا سوف لا يتسلّم أية مساعدة حقيقية من خارج ترابه ، وسيبقى منعزلا بصورة مؤكدّة ، وبعيدا عن مساعدة البولنديين والأوربيين الآخرين له . لكن الظروف أثبتت عكس ذلك ، فقد شكّل ليوبولد الأول ائتلافا أوربيا لمقاومة التهديدات العثمانية . كان الملك البولندي (يان سوبستكي) حليفه القوي والمهم .. في حين قام البابا (انوسنت) الحادي عشر يدعو الأوربيين بانفتاح وقوة إلى شنّ حرب صليبية جديدة ضدّ العثمانيين المسلمين . وتدفقت الأموال والرجال على الهابسبورك من البرتغال وأسبانيا وبولندا ، ومن أمراء عديدين في ألمانيا .

يتمثل الخطأ التاريخي الجاد في حدوث ذلك الفشل المرير الذي منيت به الدولة العثمانية على يد الوزير الأعظم قره مصطفى باشا وفي عهد السلطان محمد الرابع .. ذلك أنهما لم يحصرا الحملة في الأراضي الهنغارية بل تقدّمت لمحاصرة فيّنا . لقد تحمّل المسؤولية التاريخية في فشل الحصار العثماني الثاني ل (فيّنا) الوزير الأعظم قره مصطفى باشا الذي طرد من منصبه الأسمى في الدولة ، وأعدم في بلغراد بتاريخ ١٥ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٦٨٣م .

مقدمة

ورثت الامبراطورية العثمانية وهي آخر دولة اسلامية في التاريخ الاسلامي ذلك الصراع الديني ــ التاريخي بين الاسلام والمسيحية التي مثّلتها اوربا . لقد توالد العثمانيون على أعقاب دولة السلاجقة المنهارة ، فنمت أطرافهم ، وتعاظمت قواهم سنة بعد سنة وقرنا بعد اخر . نشأت دويلتهم صغيرة على تخوم غرب الأناضول لتتوسع شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ثم تأسست دولتهم العالمية التي تجانست مع من سبقها من الدول العالمية : كالامبراطورية البيزنطية والامبراطورية العباسية ، فقد عاشت الامبراطورية العثمانية أكثر من ستة قرون ، وبدت رقعتها الجغرافية موزّعة في قلب العالم القديم إذ شملت تلك الرقعة أهم مساحة استراتيجية من العالم في محاور برية وبحرية : جنوبي غربي آسيا وشرق أوربا وشمال أفريقيا والسيطرة على البحر المتوسط . لقد امتد صراعها مع أوروبا منذ فجر حياتها حتى السنوات الأخيرة من انهيارها التام .

يعتبر القرن السادس عشر من أزهى عصور الامبراطورية العثمانية ، أو بالأحرى العصر الذهبي لها ، بعد الأعمال الجبّارة التي أدّاها لها بعض سلاطينها العظام في القرن الخامس عشر الميلادي ، ومنهم السلطان العظيم محمد الفاتح الذي قضى على اخر حلقات البيزنطيين في فتحه للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م[١] ، فوصلت الدولة في عهد حفيده السلطان سليمان القانوني الذي حكم للفترة ١٥٢٠ ــ ١٥٦٦م إلى أوج عظمتها ، واتساع رقعتها الجغرافية ، وسيطرتها على تجارة العالم ، وامتداداتها في شرق أوربا وشمال أفريقيا وغرب آسيا .. فلقد استطاع القانوني أن يفتح بودابست عاصمة هنغاريا ، ووصل النمسا وفرض حصاره على عاصمتها فينا سنة ١٥٢٩م في حملته عليها ، وهي المحاولة العثمانية الأولى[٢] . وكانت تلك الحملة تحت قيادة السلطان القانوني نفسه .. ولكنه لم يكمل مهمته الكبرى تلك ، إذ رجع بعد فك الحصار عن فينا ليتعامل مع الهنغاريين في حلقة صراع متواصلة[٣] . ولقد شغل السلطان القانوني نفسه وجيشه وقادته بعد محاولته الكبرى لفتح فينا بالصراع مع ايران الصفوية ، وذلك من خلال حملته الكبرى لفتح العراق وتخليص بغداد من السيطرة الفارسية . لقد فتح القانوني بغداد سنة ١٥٣٤م بعد سلسلة عمليات حربية في ايران نفسها ، وقضّى القانوني في ربوع العراق أكثر من ثلاثة أشهر ليغادره بعد أن نظّم ادارته الاقليمية . (Pitcher, 1972: 103)

حوادث القرن السابع عشر

تمّيزت عهود الامبراطورية العثمانية خلال القرن السابع عشر على المستويين الداخلي والخارجي بين مدّ وجزر .. تقدم وتأخر .. واشراق ونكوص .. انتصار وخيبة ، وقد حكمها خلال القرن المذكور العديد من السلاطين ، منهم من امتاز بعظمته كالسلطان مراد الرابع الذي حكم للفترة ١٦٢٣ ــ ١٦٤٠م ، والذي استطاع أن يخلص بغداد قبل موته بسنة واحدة من سيطرة الفرس

الصفويين الثانية على العراق وذلك سنة ١٦٣٨م ، فاقترن اسمه بعد ذلك بـ (فاتح بغداد) (Shaw, 1978: 194-195) . ومن السلاطين الآخرين من امتاز بقلة تجربته ، وضعف شكيمته كالسلطان مصطفى الأول للفترة ١٦٢٢ ــ ١٦٢٣م ، فقد تدخل الجيش في شؤون البلاط السياسية والعلاقات الداخلية للدولة ، ومع كل هذا وذاك ، فقد بقيت تلك الدولة تعيش حياتها على نفس امتداداتها الجغرافية القصوى التي رسمتها لها العهود الأولى من القرن السادس عشر .

عهد السلطان محمد الرابع

عندما اعتلى السلطان محمد الرابع عرش الامبراطورية سنة ١٦٤٨م ، كان قد مضى على الحصار العثماني الأول لفينا العاصمة النمساوية أكثر من قرن كامل ، ذلك الحصار الذي كان قد فرضه عليها في محاولته الأولى ، جدّه الأكبر السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٢٩م .

لقد تولّى السلطان محمد الرابع مسؤولياته في حكم البلاد وهو في السادسة عشرة من عمره . وهو ابن السلطان ابراهيم من زوجته الروسية طرخان خديجة سلطان . وجاء اعتلاؤه عرش الدولة عقب الاحداث الدراماتيكية التي الهبها العصيان الذي جرى في ردهات البلاط العثماني الذي تزعمه شيخ الاسلام للدولة عبد الرحيم ضد الوزير الأعظم أحمد باشا وقد تفاقمت حدّة الانتفاضة حتى وصلت إلى أن يلقى كل من الوزير الأعظم وسيده السلطان ابراهيم مصرعهما على أيدي الانكشارية الذين أثارتهم فتوى شيخ الاسلام ضد سياسة البلاط[٤] .

هكذا جاء السلطان محمد الرابع وهو لم يزل شابا ليبدأ بادارة دفّة الامبراطورية ويحكمها لفترة تقرب من أربعين عاما . لقد جاء إلى سدّة الحكم ، وبلاطه يعجّ بتطاحن التيارات السياسية التي كان يتزعم ريادتها في أروقة ذلك البلاط كل من والدة السلطان والوزير الأعظم صوفي محمد باشا ، وبعض أجنحة قوى الجيش الانكشاري القوية والمتركزّة في العاصمة اسطنبول[٥] .

هكذا بدت الأحوال الداخلية السياسية للعاصمة في مطلع حكم هذا السلطان ، وكانت أقاليم الامبراطورية قاطبة ، تدين بالولاء المباشر للحكومة المركزية في العاصمة . أما الوزارة العظمى للدولة فقد تعاقب عليها العديد من الوزراء خلال الفترة ١٦٤٩ ــ ١٦٥٦م ..[٦] .

يتوضح من كل ذلك ، كم كانت الدولة بحاجة ماسة إلى من يشدّ وثاقها ، ويبعث الدم في ادارتها وقواها الحربية ، ويؤمن أحوال عاصمتها ، ويعيد هيمنتها عبر شرق أوربا ، وعلاقاتها الخارجية .

عائلة كوبرلو والوزارة العظمى[٧]

لقد تهيأ الوضع لأن تستلم عائلة (كوبرلو) مقاليد ادارة البلاد تحت راية سلطنة آل عثمان ،

وتستمر وزارتها العظمى لفترة طويلة تمتد بين ١٦٥٦ ــ ١٦٨٣م . ويعود أصل هذه العائلة إلى قرية (ردنيك) الألبانية ، ومن أب نصراني ، تربّى مسلما ودخل في شبابه في طاعة السلطان وخدمته .. وقد اتخذت هذه العائلة تسميتها من قرية (كوبرو) الواقعة في سهل روم وسط الأناضول . وخلال الفترة المذكورة أعلاه ، قدّمت هذه العائلة خدمات جلّى للامبراطورية ، إذ دافعت للمحافظة على وحدتها ، والنيل من أعدائها ، مما جعلها موضع ثقة البلاط بها (Kunt, 1972) وقد تمثّل ذلك كلّه عند كل من الوزير الأعظم محمد كوبرلو (١٠٦٧ ــ ١٠٧٢ هـ) والذي يعتبر صاحب مآثر تاريخية كبيرة منها أنه استطاع أن يقضي على جميع حركات العصيان والتمرد عند القوى الانكشارية والتي من احداها انتفاضة ابازه حسن[٨] .. وتوفي محمد كوبرلو بعد أن بلغ من الكبر عتيّا ، ليترك منصب الوزارة العظمى إلى ولده الوزير فاضل أحمد باشا الذي تقلّدها للفترة (١٠٧٢ ــ ١٠٨٧هـ) ، والذي كان فيما سبق حاكما على دمشق ، وحافظ خلال وزارته العظمى على خطط والده في الجيش والادارة ، إذ ظهر واضحا أن القوة الحقيقية للعاصمة قد برزت بشكل متميّز على عهده منها احترامه للعلماء وتقريبه رجال الثقافة وشهدت مضائق الدردنيل خلال سني حكمه حركة تجارية واسعة الابعاد ، كما واستطاعت الدولة أن تتواصل في خطوطها الحربية وعبر محاورها المتقدمة في شرق اوربا متمثلا باستئناف الحرب مع الهابسبورك (Kunt 1972: 92-94/ Barber, 1973: 97-110) . ويقرر أغلب المؤرخين بأن الوزير الأعظم أحمد باشا كان رجلا ذكياً ، وأكثر ثقافة من أبيه ، نظرا لأطراد انجازات الدولة داخليا وخارجيا عبر حياته السياسية الوزارية (Shaw, 1978: 207-209) ، وتوفي فاضل أحمد باشا في ٣ تشرين الثاني نوفمبر ١٦٧٦م (Shaw, 1978: 209/ Islam Ansiklopedesi, Vol, 7: 552) ، ليخلفه أخ له بالرضاعة مصطفى باشا المرزيفوني (قره مصطفى باشا) ، تلك الشخصية العسكرية اللامعة التي قادت العثمانيين مرة أخرى نحو النمسا وحصار فينا وقرع أبوابها بعد مضي عقود طويلة من السنين على حصارها العثماني الأول .

لقد وقعت خلال عهد السلطان محمد الرابع احداث تاريخية هامة من حياة الامبراطورية خلال القرن السابع عشر ، وهي :

١ ــ الحرب الروسية الأولى .

٢ ــ السيطرة العثمانية على جزيرة كريت في البحر المتوسط .

٣ ــ الحملات العثمانية ضد بولونيا للفترة ١٦٧٤ ــ ١٦٧٧م .

٤ ــ الحرب مع الهابسبورك والحصار العثماني الثاني لفينا عاصمة النمسا سنة ١٦٨٣م .

شخصية قره مصطفى باشا

ولد قره مصطفى باشا سنة ١٦٣٤م ، وعاش في كنف الوزير الأعظم محمد باشا الكوبرلي

كواحد من خدمه المخلصين ، وقد حالفه النجاح بعد أن بدأ حياته السياسية تحت رعاية ذلك الوزير ، فولّاه في بداية الأمر نيابة ديار بكر ، تلك الولاية البعيدة والمترامية الأطراف في شمال العراق ، ثم جعله بعد ذلك حاكم البحر . وجاء فاضل أحمد باشا متوليا الوزارةالعظمى فقرّبه إليه للاستفادة منه سياسيا واداريا في أمور العاصمة ، وصحبه معه في غزوته إلى جزيرة كريت في البحر المتوسط ، ونصبّه فيها قائمقاما مكانه (Al-Muhibbi, 1868: 343-344) .... وعندما كان السلطان محمد الرابع يقضي فترة استجمام بين كل من المدينتين سلانيك وينكي شهر ، سافر قره مصطفى باشا إلى هناك وقدم خدماته للسلطان .. ومن خلال ذلك ازداد اتباعه ، وكثرت حاشيته ، واكتنزت خزينته ، وتمتع بعد ذلك بمنصب مستشارية الدولة بعيد عودة الوزير فاضل أحمد باشا من فتح قلعة قندية عاصمة جزيرة كريت . (Hammer-Purgstall, 1828: 178) .

لقد كانت جميع هذه العوامل وظروفها مترافقة مع نيل قره مصطفى باشا منصب الوزارة العظمى بعد موت الوزير فاضل أحمد باشا ، إضافة إلى ما كان يحمله من صفات الحزم والحكمة ومذاكرة العلوم وممارسة الفنون .. معالجا لأحوال الجيش . وكان يبدو هذا الوزير مزهوا ذا خيلاء ومعجبا بنفسه ، وطامعا بجمع المال وان طموحه في الفتوح والسيطرة على فينا لم يحدّه حدود (Hammer - Purgstall, 1828: 179/ Krentel, 1955, 1959) .

الحرب الروسية الأولى

قبل أن يضع الوزير قره مصطفى باشا خططه الحربية لفتح فينا ، فقد دخل حربا مع الروس في أوكرانيا بعد أن جهّز جيوشا جرارة بأمر السلطان محمد الرابع ، وسار بها في حين كان بعض وزراء البلاط العثماني لم يعلنوا عدم ارتياحهم لتجريد مثل هذه الحملة العسكرية ضد القيصر الروسي الذي كان يمتلك جيوشا كبيرة ، والأكثر من ذلك أن البر الروسي ذا عمق هائل يصعب فيه التقدم والانسحاب .. وكان قره مصطفى باشا يواجههم بالسؤال التالي :

من سيحكم شعب القوزاق المسلم في أوكرانيا[٩] ؟

نحن نعلم بأن القوزاق كانوا قد قبلوا السيادة العثمانية عليهم بعد سنة ١٦٦٩م ، وذلك بعد صلح زورافنوا ــ Zoravno ــ بين روسيا وبولندا ، إذ قاد هذا الصلح إلى أن يتفق القوزاق مع العثمانيين ضد القيصر الروسي اليكسس Czar Alexis ــ والملقب بـ (الهادىء) والذي حكم للفترة ١٦٤٥ ــ ١٦٧٦م[١٠] .

التحم القوزاق بالعثمانيين من الطرف الشمالي بعد أن تقدم الجيش العثماني تحت قيادة الوزير قره مصطفى باشا ، واستطاع أن يفتح قلعة جهرين ــ Ghigirin ــ العاصمة القوقازية سنة ١٦٧٨م ، ورافق احتلال تلك القلعة المنيعة سيطرة الجيش العثماني على ما كان يحيط بها من مواقع وحصون[١١] .

لقد كان لهذا الحدث التاريخي العظيم أثره الكبير في صالونات بلاط العاصمة اسطنبول ودنيا الادارة التي لم تكن تتوقع حدوثه نظرا لمناعة القلعة المذكورة ، وعمقها الممتد في الأراضي الروسية .. فاحتفلت تلك العاصمة وأقامت الأفراح ، وتوّج ذلك قدوم السلطان نفسه إليها من مدينة سلستره الواقعة في الطرف الأوربي من امبراطوريته ، ليشهد احتفالات العاصمة وطلقات مدافعها (Silahdar, 1928: 741 / Al-Muhibbi, 1868: 344) . وبينما كانت مشاعل تلك العاصمة المبتهجة تحيل ليالي البسفور إلى نهارات متألقة في مهرجانات اشتركت فيها قطاعات من السكان والرحالة والقناصل ورجال الجيش والدولة .. بدأت على حين غفلة السنة النيران تتصاعد في السماء بناحية الفنار من اسطنبول ، وتوسّعت تلك النار العاتية مع هيجان الناس وهروبهم ، فبدأت تأكل البيوت والمحلّات فأتت على اثني عشر ألف بيت (Silahdar, 1928: 741 Al-Muhibbi, 1868: 344) .. وقد خلق هذا الحريق الهائل نكبة للعاصمة ، وكان بداية لحرائق كثيرة في العاصمة نفسها ، تواصلت تنشب بين فترة وأخرى على امتداد سنة كاملة .

وتعد النكبات التي توالت على العاصمة ، من الأسباب التي منعت العثمانيين من تحقيق بعد ذلك نجاح كالذي حققوه ضد الروس في فتحهم لقلعة جهرين . وهذا ما دعا الوزير الأعظم قره مصطفى باشا لأن يقبل بالصلح مع الروس بتاريخ ٨ كانون الثاني يناير ١٦٨١م . وقد طالب العثمانيون بتحديد الأراضي بين الطرفين المتنازعين ، فتّم الاعتراف بنهر الدنيبر ــ Dnieper ــ ، على أنه الحدود الشمالية لأراضي السلطان العثماني (Shaw, 1978: 214) .. وهكذا ترك العثمانيون خصومهم الروس في مواقع جغرافية قابلة للتوسع والتقدم في أعماق أوسع إذا أرادت اسطنبول .

الحرب مع الهابسبورك

لقد كانت رغبة الوزير الأعظم قره مصطفى باشا لقبول الصلح غير الايجابي مع روسيا ، حسب اعتقاد البلاط العثماني قد نسبت بصورة رئيسية إلى الصعوبات الجديدة في هنغاريا ، والتي قادت إلى اشتعال فتيل الحرب من جديد مع الهابسبورك ، ولم يكن قد مضى على الهدنة التي كان قد عقدها الوزير الأعظم السابق فاضل أحمد باشا مع الهنغاريين والنمساويين بعد فتحه قلعة ايوار إلّا ثلاث سنين عندما بدأت استعدادات الامبراطورية العثمانية على أوجها للحرب معهم .

١ ــ أحوال أوربا

كانت أوربا تعيش في حالة سياسية مضطربة غير متوازنة ، عندما كان العثمانيون يتأهبون لدخول الحرب ضد النمسا ، وقد أغرتهم تلك الأوضاع والانقسامات التي كانت تعيشها أوربا (Pennington, 1970: 15) . فقد تصاعدت الحركة الوطنية في هنغاريا ، والتي غذتها وبصورة فعالة النزعة المعادية للكاثوليك ، والمضادة للهابسبورك ، وكذلك التعاطف الشعبي معها ضد

النبلاء ، والذي كان من أهدافه تأسيس مملكة هنغارية مستقلة عن تدخلات الهابسبورك . لقد مهّد القادة ذوو النزعة الوطنية في هنغاريا للوصول إلى تلك الظروف ، وكانت الامبراطورية العثمانية تنظر إليهم كحلفاء مساعدين للرجوع إلى عهودهم التي كانوا قد قطعوها بقبول السيادة العثمانية . وفي حقيقة الأمر أنهم حاولوا وبدعم فرنسا توجيه الأنظار العثمانية نحو النمسا والتعامل الحربي مع الهابسبورك ، وعمل لويس الرابع عشر ملك فرنسا من جانبه على دفع العثمانيين ضد الهابسبورك (Stoye, 1965: 41) . وتأجج الوضع الداخلي في هنغاريا باستعمال الثورة الهنغارية بغرض دفع الهابسبورك إلى الوراء ، مما حدا بالسلطان العثماني إلى تنصيب ثوكلاي ــ Thokoly ــ ملكا على هنغاريا ، وفتحت جميع الأراضي في أعالي هنغاريا في أواخر صيف ١٦٨٢م ، في حين كان هابسبورك النمسا يعملون على تفادي فتح الحرب مع العثمانيين الأشداء ، وفي الوقت ذاته ، كانوا يعادون فرنسا في غرب بلادهم (Silahdar, 1928: 74-75/ Shaw, 1978: 214) . ولم يكن من الهين على ليوبولد ــ Leopold I ــ امبراطور النمسا التنسيق والصلح مع لويس الرابع عشر ملك فرنسا (Spielman, 1977: 61-63) . ومن الجانب العثماني ، كان قره مصطفى باشا مقتنعا بفضل العملاء الافرنسيين ، بأن الوقت قد حان أمام جيوشه لاكتساح النمسا وأخذ عاصمتها فيّنا (Spielman, 1977: 61-63) ، قلب أوربا النابض ، والتي كانت تعتبر أكبر مدينة واعتى قلعة أوربية عصر ذاك . ولم يكن يحسب للدول المتعددة والمتنوعة في أوربا أيّ حساب في نصرة الامبراطورية النمساوية نظرا لشتات أنظمة تلك الدول الصغيرة والاختلافات الحادة بينها .. ولكن كان بعضها مستعدا للاتحاد الدفاعي المشترك .

٢ ــ استعدادات أوربا لمواجهة الخطر العثماني

تقدم الوزير الأعظم قره مصطفى باشا من سيدّه السلطان محمد الرابع لكي يسمح له بالتحرك بعد أن تواصلت التحضيرات عبر المسالك التي سوف تجتازها الجيوش العثمانية وذلك من خلال نوابه الحكام الأوربيين في الاصقاع العثمانية من شرق أوربا (Stoye, 1965: 41/ Shaw, 1978: 214) . كانت عدّة الجيوش العثمانية قوية جدا ، أما العدد فقد كان يفوق الحصر ، واحتشدت بصورة هائلة عند مدينة ادرنه بول (Islam Ansiklopedesi, Vol 7:552) .

وصلت الأخبار إلى السلطان محمد الرابع ورجالات بلاطه بأن ائتلافا أوربيا جديدا قد ظهر على الساحة الأوربية لمواجهة التهديدات العثمانية القوية ، فقد تحالف جان سوبتسكي ــ Jan Sobieski ــ ملك بولندا مع ليوبولد امبراطور النمسا (Hammer, 1828: Vol 6: 178-9 Encyclopaedia of Islam, Vol 11: 1061) . وتجّرد البابا أنوسنت الحادي عشر ، وقدّم طلباته العريضة في دعوته لأوربا جمعاء لبدء حرب صليبية جديدة ضد العثمانيين المسلمين ــ كما يذكر ذلك المؤرخ سترانفورد شو (Davies, 1981) . وذهب البابا المذكور لأبعد من ذلك ، ليسائل شاه ايراه (Shaw, 1978: 214) سليمان الصفوي المساعدة باعتبار الأخير خصما تاريخيا

لدودا للسلطان العثماني . أما في فرنسا ، فقد أحبط فعل المعارضة ، نتيجة تأثيرات الاغاثة والهيجان الأوربي ، وبقيت فرنسا محتفظة بآرائها ورجالها المضمونين والمنظمين . وقد بقي خارج دائرة الصراع أيضا كل من الهولنديين والباركانديين وبعض أمراء المقاطعات الألمانية ، في حين وصلت بعض الاغاثات إلى النمسا من أسبانيا والبرتغال نتيجة للعلاقات الوطيدة بينهما وبين الهابسبورك (Barker, 1967: 76-77/ Shaw, 1978: 214/ Stoye: 1965: 102) . ولم تشر المصادر إلى أي نوع من المساعدة قدمتّها انكلترا التي بقيت مكتفية بمراقبة الأحداث .

لقد كان الامبراطور ليوبولد ينتظر من حلفائه : البابا ، أسبانيا ، البرتغال والدول الايطالية الصغيرة المتشرذمة لكي يعاونوه جميا بنقودهم ومساعداتهم المالية .. في حين كان كل من : جان سوبتسكي ملك بولندا ، والأمراء الألمان لدول ألمانيا المبعثرة : بافاريا ، ساكسوني ، وفران كونيا .. يساعدونه بالأسلحة . أما المساعدة بالرجال فقد وقع على عاتق بولندا وامارة لوريس الألمانية . وتشكلت قوة عسكرية نتيجة التحالف الأوربي ضد الزحف العثماني قدّر بحوالي ٨٠ ألف رجل وعيّن جارلس الخامس دوق لورين قائدا عاما لتلك القوة (Barker, 1967: 76-77/ Shaw, 1978: 214 / Stoye:. 1965: 102) .

٣ ــ الحملة العثمانية ، قواها وخطتها السرية العظمى

كان الجيش العثماني يتألف من عناصر شتّى تنحدر مجاميعها من أصول مختلفة وقد توحّدت جميعها تحت الراية العثمانية : السباهية والانكشارية الأتراك ، التاتار من بلاد القرم (كرميا) ، إضافة إلى الأوربيين الشرقيين من البلغاريين والصربيين والسلاف .. وقد جمع عددهم ٢٤٠ ألف رجل* عدا الشغيلة والجنرالات وقاد الجيش الوزير الأعظم قره مصطفى باشا ، وقد التحم بهذه القوات بعد زحفها قوى التحالف الأخرى التي شكّل عددها ٧٠ ألف رجل آخرين من الهنغاريين الذين قادهم الكونت ثوكلاي المنصب من قبل العثمانيين[١٢] .

لقد كانت الخطة العثمانية السرية العظمى تقضي بفتح اوربا قاطبة والوصول إلى المحيط الاطلنطي عبر مسلك استراتيجي يوصل الجيش العثماني إلى الراين والانتشار من هناك لتمزيق أوربا جغرافيا واسقاط عروشها ونشر الاسلام فيها (Uzuncarsili, 1956:216) ، ولا يتم ذلك إلّا بفصل شمالها عن جنوبها بالسيطرة على هذا المسلك الحيوي ، ولا يمكن السيطرة عليه إلّا من خلال فتح كل من العاصمة النمساوية فينّا ، ثم التقدم منها وفتح براغ والدخول في المقاطعات الألمانية والوصول منها إلى الراين .

٤ ــ الطريق نحو العاصمة فينّا عبر الأراضي الهنغارية

تحركت الجيوش العثمانية من مدينة أدرنه بول نحو فينا في ٣١ آذار مارس ١٦٨٣م . (Stoye,

(1965:102 وانتهى قائدها من أراضيه بعد أن التحقت به القوى المتحالفة ودخل التخوم النمساوية . كان تقدم تلك الجيوش يتم عبر ثلاثة خطوط رئيسية : مسلك استراتيجي يوصّل إلى فينا ، يحميه مسلك شمالي ومسلك جنوبي آخر . تقدم الوزير الأعظم بزهوة قواته عبر المسلك الرئيسي الوسطي وكان قد أمر هذا الوزير القائد الثالث حاج كراي سلطان أن يخترق هذا المسلك مع أفواجه ليفتحه أمام قوات الوزير الكبرى . وأعطيت الأوامر للقائد العثماني الآخر بكر باشا أن يخترق المسلك الشمالي ، وقد توّجه هذا القائد بقواته الشرسة فاستطاع أن يفتح قلعة هانبروك ، في حين كانت قوات أخرى يقودها القائد نور الدين كراي تخترق المسلك الثالث ، وقد تواجهت هذه القوات الأخيرة بقوات أوربية معادية تقّدر بعشرين ألف مقاتل ، وكانت قوات نور الدين كراي تؤلف عشرة آلاف مقاتل ، فالتقى الاثنان ودارت رحى معركة غاية في العنف ، انتصر فيها العثمانيون انتصارا ساحقا .. وهكذا بدت الجيوش العثمانية أثناء مرورها ، قاسية في المعاملة دموية في النزال ، مدمّرة في الاكتساح فقد دمّرت واحرقت حوالي مائة قلعة ، وأسقط جيش الوزير الأعظم قلعة اوار الشهيرة التي وصفت كونها أحصن من قلعة ايوار العاتية تلك التي توّجت فتوحات الوزير الأعظم السابق فاضل أحمد باشا الكوبرلي (Al-Muhibbi, 1868: Vol 3, 244 / Al-Jamil, Vol11: 303, 305) .

لقد أسر العثمانيون خلال تقدمّهم مائة ألف أسير ، وعندما اقتربت جيوشهم من العاصمة فينّا ، هربت بعض القوات النمساوية من وجه الخطر العثماني وحملوا معهم عدتّهم وذخائرهم فتّجرد فوج من التتار الخزريين المنخرطين في الجيوش العثمانية المشتركة ولاحق تلك القوات النمسوية المنهزمة فاوقع فيها هزيمة كبرى عند قلعة لنجه القريبة من العاصمة فينّا (Hammer, 1828: 168) .

تكامل وصول الجيوش العثمانية المشتركة عند المقاطعة الجنوبية للعاصمة ، فقد وصلت في البداية القوات التتارية ــ الخزرية ، ثم اندمجت بها القوات المركزية التي يؤلفها الانكشارية التركية وقوات الامارات الأوربية ذات الحكم الذاتي والتابعة للامبراطورية العثمانية وهي : ولاجيا ومولدافيا وترانسلفانيا ، وبعد ذلك القوات الهنغارية (Stoye, 1965:163/ Melegeri, 1981: 131) .

ويخبرنا مصدر تاريخي أوربي بأن الجيوش العثمانية قد حققّت نجاحات كبيرة في اختراقها الأراضي الهنغارية نحو النمسا ، وقلاعها وأنهارها .. رغم المقاومة التي كانت تواجهها تلك الجيوش من التحصينات المتواجدة ، وتقهقر القوى المتحدة من المتحالفين الأوربيين . وكانت أنباء ذلك الزحف العثماني تصل أسماع الامبراطور ليوبولد (Spielman, 1977: 86) . ورغم تواصل الجيوش وتقدمها إلّا أنها كانت تأخذ قسطها من الراحة بين فترة وأخرى معزّزة بتحصيناتها . وقد أعجب العديد من المؤرخين الأوربيين بالطريقة التي استعملتها القوات العثمانية في عبورها لتلك الأنهر العميقة مع عدتها الحربية الثقيلة (Spielman, 1977: 89-90) .

٥ ــ على مشارف العاصمة فينّا

تحّرك الوزير متقدما إلى هدفه يوم الأربعاء ١٤ تموز (يوليو) ١٦٨٣م ، بعد أن استراح قليلا .. وكان مروره نحو العاصمة فينّا من الجنوب عبر واديها المتصل بها وبقنال كبير يبدأ بالدانوب ، وينتهي بسلاسل الجبال التي تمتد خلف المدينة . لقد بقيت القوات المركزية التي يقودها الوزير في وسط الجيوش .. ومن موقعه المتقدم رسم قره مصطفى باشا باستشارة جنرالات جيشه ومهندسيه مكانه والقوات المركزية في القلب ، معززاً بالقطعات الانكشارية ورؤسائها تحت قيادة بكلر بكي روميليا . أما على يمين الوزير فكانت هناك قوات باشوات ديار بكر وبعض ولايات الأناضول اضافة إلى القوات الآسيوية المشتركة وبعض الانكشارية .. وقد أعطى الوزير قيادة قوات اليسار إلى أحمد باشا يرافقه بعض الباشوات (Rasit, 1865, Vol3, 186) .

وقبل وصول القوات العثمانية إلى العاصمة فينّا ، غادر الامبراطور ليوبولد الأول تلك العاصمة مع حاشيته وعائلته (Rasit, 1865, Vol3, 186-187) . ويدل هروب الامبراطور ، أن عاصمته كانت ضعيفة وانه كان متأكدا من سقوطها بأيدي العثمانيين ، ونستدل أيضا أن هذا الامبراطور كان مفتقدا للشجاعة والاخلاص حين هرب مع أعوانه وأهله وترك شعبه ووطنه يعانون محنة السقوط والحرب .

٦ ــ الحصار الكبير

في ١٧ تموز (يوليو) ١٦٨٣م ، أحاط الوزير قره مصطفى باشا مع جيوشه العاصمة النمساوية ، والتي لم تكن حاميتها العسكرية مستعدة للدفاع عنها . كانت فينّا قلعة منيعة ، تحيط بها من جوانبها الثلاثة الدور والعمارات والحدائق الغنّاء وبساتين الفواكه والأبنية الحكومية المزخرفة ، والقاعات المبنية من الرخام (Hammer, 1828: 168/ Al-Muhibbi, 1868: Vol3, 245) . كان القسم الكبير من جيوشها قد هرب وهرب بمعية الجيش بعض الأهالي ممن كانوا يسكنون خارج المدينة على مشارفها وضواحيها ... ولم يبق في داخلها إلّا نحو عشرين ألف رجل نصفهم من الجيش المتبقي ، والنصف الآخر من الرعية ، الذين دعموا من تبقى من الحامية العسكرية ، وشاركوا جميعا في أعمال الدفاع أمام الخطر العثماني ، وهيئوا بعض ما عندهم من مستلزمات لدرء ذلك (Melegeri, 1981:132) ، وعلى العموم تراءت فينّا تحصينات واقية . ويخبرنا صاحب كتاب (الحصارات الحربية العظمى) ، بأن قوى الدفاع النمساوية كانت تتألف من احد عشر ألفاً من القوات ، إضافة إلى خمسة آلاف مواطن من المتطوعين (Melegeri, 1981: 133) . ويخبرنا مصدر تركي بأن الوزير قره مصطفى باشا وصل فينّا يوم الأربعاء ١٤ تموز وتّركز في مخيمه الرسمي الواقع في قلب الجيش ، ومنذ وصول القطعات العثمانية المركزية بدأت قطعات اليمين واليسار المتمركزة

بالحفر خلال الليل لممرات ومجازات تتجه إلى حصون المدينة (Silahdar, 1928: 1/75) .

وقف الوزير قره مصطفى باشا يتطلع مع مستشاريه إلى المواقع المهمة ، والبنايات والحدائق والأسوار من مكان رائع .. ويعلّق أحد المؤرخين بأن الوزير لو اتخذ موقعه من ناحية السور الشرقي لفينّا ، لاستطاعت قواته البدء بقطع المياه عنها (Stoye, 1965:162) .

اشتد طوق الحصار العثماني على فينا ، عندما أمر الوزير قره مصطفى باشا باحراق مشارفها الواقعة خارج القلعة ، فبدأت النيران تلتهم الأبنية والحدائق والقصور على نحو سريع .. عدا النصب الهمايوني الكبير للسلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان التمساويون قد بنوه بناء شاهقا مدهشا ، وأقاموا حوله المنتزهات ، تعظيما واشادة منهم لذلك السلطان الذي أعجبوا بعظمته وأخلاقه وسماحته مع أعدائه (Al-Muhibbi, 1868:3/244) .

هكذا استعمل الجيش العثماني في بداية الحصار ، عدة تدابير مرحلية لشد وثاق ذلك الحصار واطباق الخناق على المدينة الداخلية .. ثم بدأت مرحلة القصف بالقنابل على القلعة وبصورة شديدة مما أضاق بسكانها ، فعقدت المجالس الكنسية اجتماعاتها في بهو المدينة لتتوصل إلى قرار يرضي الوزير بتسليم فينا له والحفاظ على حياتهم (Al-Muhibbi, 1868: 3/245/ Hammer, 1828: 168) . في حين كان هناك عدد من الأجانب في المدينة قد انتابهم الخوف والهلع من تلك النيران العريضة في السماء والزاحفة نحوهم ، ومن ورائها تقف متأهبة تلك الجيوش المتغطرسة القوية ، وكانت فينا قد أعدت بعض رجالها الأقوياء كقوات خاصة من (الكوماندوز) تباغت بعض القوات العثمانية ، وكان عددهم ثمانمائة مقاتل ، قسموا على نحو ارتال ، وعندما بدأت أعمالها ، رشق الجيش العثماني المدينة بالحجارة الكبيرة ، فرجعت العديد من الأرتال الخاصة لائذة بالفرار والحماية دون تأدية واجباتها ، في حين كانت المدفعية العثمانية ترمي بوابل قنابلها على المدينة (Melegeri, 1981: 132) .

لقد انهارت معنويات سكان المدينة المحاصرة من مدنيين وعسكريين ورجال دين .. لاسيما بعد أن تحرك الوزير العثماني لبدء تنفيذ مرحلته الثانية ، وهو مستمر في خطته التالية التي وصفها أحد المؤرخين الأوربيين بالخطّة العظمى (Stoye, 1965:141) ، وذلك من خلال تطويقه فينّا من جميع الجهات . ذهب الوزير بنفسه ليراقب جميع المواقع من قواعدها المشرفة البعيدة أو القواعد الدنيا القريبة تلك التي عسكر فيها جنوده في مناطق قريبة من الأسوار العالية ، فأعطى أوامره إلى كل من القائد حسين باشا الدمشقي والي دمشق الأسبق ثم إلى أمراء ولاجيا ومولدافيا ليعملوا بكل قوتهم لعبور مياه القنال إلى جهة (ليوبولد ستيدات) والجزر ، فتراجعوا قليلا عن أماكنهم وعبروا القنال بواسطة جسور نهر الدانوب ، فوصلوا المنطقة الاستراتيجية التي كانت ترمي إليها الخطة ، فأشعلوها بالنيران وتحطم ليوبولد ستيدات ، واتخذت الجيوش المتقدمة مواقع جديدة بمواجهة فينا من هذا الجانب ، بعد بنائهم للجسور ، وإشرافهم على تحصينات المدينة المنيعة

(Stoye, 1965: 142) ، وبنجاح الخطة العظمى زار الوزير هذه المنطقة المهمة وألقى نظراته نحو قصور أباطرة الهابسبورك الفخمة ، ورجع فرحا بعد أن عبر الجسر الجديد الذي بناه جنوده (Stoye, 1965: 142-143) .

بعد اشتداد طوق الحصار كثيرا ، تقدمت فينا بالسلم إلى الوزير العثماني ، وان يتسلم مدينتهم الزاهية طوعاً ، فأبى ذلك قره مصطفى باشا خوفا من أن تقع أموال المدينة .. عرضة للنهب من قبل جيوشه المتنوعة ، رغم موافقة أعيان وزرائه وجنرالات تلك الجيوش إذ رحّب جميعهم بالفكرة ، إلّا أنه التفت إليهم قائلا : « أفعل ذلك ان ضمنتم لي العسكر في أن لا يأخذ شيئا » (Al-Muhibbi, 1868: 3/243) . فأبوا ذلك ، وامتد الأمر ليومين أو ثلاثة أيام وهم يناقشون المسألة عن كثب ولم يعلموا بأن الوقت كان يمضي في غير صالحهم ، وان جيوشا أوربية كانت في طريقها القريب نحوهم لتخليص فينا من محنتها .

٧ ــ الحرب مع قوى التحالف الأوربي وفشل الحصار

في ٤ أيلول (سبتمبر) ١٦٨٣م ، سمع العثمانيون الذين يحاصرون فينّا ان سبعين ألف رجل أوربي كانوا يتقدمون من هولبورن نحو فينّا ، ودعا هذا الأمر الوزير قره مصطفى باشا لأن يرسل حاج كراي سلطان صاحب القرم مع قواته ضدّهم وأمره بأن لا يجعلهم يعبرون نهر الدانوب ، ولكن الجيش الأوربي كان قد عبره .. وكان هذا الجيش يتكون من سبع وعشرين ألف نمساوي تحت قيادة جارلس دوق لورين ، وعشرين ألف بولندي تحت قيادة سوبتسكي ملك بولندا ، إضافة إلى عشرين ألف آخرين من الألمان السكسونيين والبافاريين ، واعداد أخرى من القوات السويدية .. وقد أعطيت القيادة العامة لهذه الجيوش المشتركة إلى سوبتسكي نظرا لعلو درجته السياسية ، ولكن عبء التخطيط الحربي ، إنما بقيت مسؤوليته بيد جارلس دوق لورين (Stoye, 1965: 169) .

تلقّت كافة القطعات الأوربية في ليلة التاسع من سبتمبر (أيلول) ، رسالة مستعجلة من قائدها العام الملك سوبتسكي يدعوها فيها للاستعجال نظراً لأن العثمانيين نجحوا في فتح عدة ثغرات في أسوار فينّا ، وقد أصبحت المدينة قاب قوسين أو أدنى من السقوط (Stoye, 1965: 167-168) . وفي ليلة الحادي عشر من الشهر المذكور ، وقد كانت ليلة دافئة رائقة ، التقطت عيون الرصدة من العثمانيين طلائع الجيوش الأوربية المتحدة .. وعند طلوع الشمس من يوم ١٢ أيلول ، كانت تلك الجيوش مستعدة للدخول في الحرب ، وأثناء تلك الظروف الحرجة ، كان الوزير قره مصطفى باشا ضد النصيحة التي أسداها إليه ضباط أركان حربه القاضية بالجلاء والانسحاب رويدا (Stoye, 1965: 167-168) ، إذ أنه وجد نفسه قويا ليخوض القتال على جبهتين في آن واحد ، ولكن في موقع غير ايجابي على الاطلاق .

أخذت القوات البولندية مواقعها على اليمين ، أما القوات الألمانية فقد استقرت في المركز في حين توزّع النمساويون على اليسار . واتخذ سوبتسكي القائد العام مركزه عند قواته في اليمين . (Stoye, 1965: 167-168)

واشتعلت الحرب الطاحنة بين الطرفين ، تلك الحرب التي يعتبرها كل من أرخّ لاوربا خلال العصر الحديث ، بأنّها أعظم انتصار تحقق في تاريخها ضد العثمانيين المسلمين . كان الهجوم عنيفاً ومباغتا على العثمانيين ، فقد اشتركت القوات الأوربية بتمزيق السباهية في القلب العثماني وكانت ثلاث سرايا ايطالية في طليعة القوات الأوربية (Melegeri, 1981: 132-133) .. بعدها تفرقت الجيوش العثمانية ، وقرر قره مصطفى باشا التراجع ولكن بعد فوات الأوان ، إذ ضاع شمل قواته فأدبرت بعد انتكاسة مريره ، ولكن بدأت سطوتها تعلو من جديد ، ورافقها بعض النجاح في هجوم عنيف مضاد قامت به بعض فصائلها على القوات البولندية على ساحة عريضة الجوانب ، ولم يقدر لهذا الهجوم النجاح بعد أن أسعف الألمان القوات البولندية ، واندفع كل من الألمان والبولنديين على العثمانيين لينتهوا بالانتصار عليهم في هذه المعركة الدموية ، في حين كان الوزير قره مصطفى باشا قد انسحب مع أركان حربه إلى الوراء (Islam Ansiklopedesi, VI: 908) . يحدثنّا المؤرخ سترانفورد شو عن التقهقر العثماني قائلا : « إن التحضيرات العظيمة التي قدمّها سوبتسكي في اللحظات الأخيرة ووصوله فينا قد أجبر القوات العثمانية على الانسحاب في شهر أيلول ١٦٨٣م (Shaw, 1978: 214) » ان المباغتة الأوربية وسرعتها والتفافها حول الجيوش العثمانية التي حاصرت العاصمة النمساوية ما يقرب من شهرين ، أدىّ كل ذلك إلى تقهقرها بعد

ان دخلت حربا طاحنة ما كانت تتوقع بأسها ، فقد فرّت مقدمة القوات العثمانية من رهبة النيران ، أما القلب فقد عصرته الهجمة القاسية وتحّولت المؤخرة إلى غنائم حرب شملت السرادقات والخيول والأعتدة والجسور والدروع والتجهيزات / (Shaw, 1978: 214-215 Stoye, 1965: 167-168) .. ويصف لنا أحد المؤرخين الأوربيين بقوله : « كان العثمانيون غير مبالين بخطر القوات الأوربية المتحالفة ضدهم ، كما وكانوا واثقين من أنفسهم ، فخاضوها معركة جبارة في أرض بعيدة ، في حين ابتهجت العاصمة فينّا من داخلها ، وقرعت أجراس كنائسها عندما دارت الدائرة على العثمانيين الأشداء ، فتراجعوا بصورة غير منتظمة .. (Barker, 1967: 217) . أما الوزير قره مصطفى باشا فقد نجا هاربا من ساحة المعركة ، وانتشر جنوده ومقاتلوه ومستشاروه في براري هنغاريا حين لاذوا بالفرار فوصل البعض منهم إلى اكرى ، والبعض الاخر إلى بودم بعد أن تحطم البعض الاخر وفرّ إلى الدانوب ، وبوصول الوزير إلى بلغراد أصبحت الأخيرة مركزا لكي تتجمع فيه كافة الفصائل العسكرية من جيوشه (Barker, 1967: 217-219) .. لقد حاول الوزير قره مصطفى باشا أن يوّحد جيوشه مرة أخرى والوقوف أمام أوربا من جديد ، ولكن خصومه في البلاط العثماني كانوا أسبق منه حين أقنعوا السلطان محمد

الرابع بأن الوزير الأعظم قره مصطفى باشا كان هو المسؤول الأول والأخير في الفشل عند فينا ، إضافة إلى سقوط المسلك الاستراتيجي نحوها مع قلاعه بعد انهيار الدفاع العثماني . هكذا تلّقى هذا الوزير كتابا من السلطان يلزمه فيه بالموت ثمناً للانهزام ، فواجه بشجاعة مصيره الذي كان يترقبه .. لقد أعدم قره مصطفى باشا في بلغراد في ١٥ ديسمبر ١٦٨٣م محرم ١٠٩٥هـ (Shaw, 1978:215) .

٨ ــ أسباب الفشل

عزا أغلب المؤرخين أسباب فشل الحصار العثماني الثاني لفينا إلى قائد الحملة الوزير الأعظم قره مصطفى باشا كون يقظته واحتياطاته وتحسباته للموقف الصعب لم تكن كما كانت عليه سابقا ، وإنه كان غير مدرك لطبيعة الوضع السياسي في أوربا والذي خلقته حملته منذ تحركت باتجاه فينا . من ناحية أخرى ، كان الهجوم العثماني على المدينة المحاصرة بطيئا رغم نجاحاته التي حققها ، إضافة إلى أن الوزير لم يقبل باستلام المدينة كما طالب منه أصحابها خوفا عليهم وعلى أموالهم من سطوة جيوشه ، وكان البعد والبطء والارهاق عوامل إضافية ، رافقها تفشي مرض الديزانتري وأمراض أخرى في صفوف جيشه مما أضعف قواها (Uzuncarsili, 1956: 216) . والسبب الاخر ، ان الجيش العثماني حارب على جبهتين اثنتين : جبهة الحصار وجبهة قوى التحالف الأوربي ، وكان عليه أن ينسحب عن فينا العاصمة ليتعامل بالكامل مع قوى التحالف ليحتفظ على الأقل بمسالكه وخطوطه إذا اضطر للانسحاب إلى دفاعاته .. وأخيرا تصلّب الوزير بآرائه وعدم أخذه ببعض نصائح جنرالاته وأركان حربه من الأمراء والمستشارين ، ومن الطرف الآخر القسوة التي مارسها قواده وجنوده خلقت فزعا عارما اجتاح أوربا بصورة كاملة ، على عكس ما حدث في الحصار الأول على يد السلطان القانوني .

٩ ــ نتائج الحصار (Shaw, 1978: VI, 217-22)

أ ــ أن أهم نتائج الحملة العثمانية وحصارها للعاصمة فينا الذي باء بالفشل وما سببه من مخاوف لأوربا جعلها تنتبه إلى أوضاعها المترديّة ، وبدأ حكامها يلتقون في توجهّاتهم المتباينة ، وخفّت حدةّ صراعاتهم ، وتوحدت جهودهم خلال ساعات الصراع الحاسمة .

ب ــ أدى فشل الحصار العثماني على فينّا إلى أن تعلن كل من مولدافيا وولاجيا العصيان المسلح ضد الدولة العثمانية ، وانحياز كل من هذين الاقليمين إلى الهنغاريين .

جـ ــ فقد العثمانيون بعد تقهقرهم بعض قلاعهم المنيعة التي كان عددها ١٨ قلعة في هنغاريا .

د ــ قويت شوكة أوربا اثر النكسة العثمانية المريرة ، وطالبت دولها المنتصرة البلاط العثماني ، بحقوق لها في أراض عثمانية قديمة في أروبا على حد زعمهم ، حيث طالبوا أن تصل حدودهم إلى مدينة إسكوب .

هـ ـــ رجع امبراطور النمسا ليوبولد الأول إلى عاصمته فينا على أسنّة الحراب الأوربية التي أنقذته وأنقذت عرش الهابسبورك معه ، ليتلقى في بلاطه رسائل التهنئة ، كان من بينها على غير المتوقع بطاقة تهنئة من لويس الرابع عشر ملك فرنسا أوجزها بكلمة تقول : « لقد حدثت المعجزة » (Melegeri, 1981: 133) » .

استنتاجات تاريخية

نخرج من بحثنا هذا عن الحصار العثماني الثاني لفينّا ، عاصمة الهابسبورك النمساوية سنة ١٦٨٣م ، بالعديد من الاستنتاجات التاريخية ، سواء فيما يخص طبيعة الأحداث ، أو الأبطال ، أو الدول ، أو الأرضية التي تحركت فوقها الوقائع الساخنة للحصار . لقد كان لتأثيرات أحداث ذلك الحصار على كلا طرفي الصراع العثماني ـــ الأوربي .. كبيرا ، ومجسمّا من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بما يخص المرحلة التي أعقبت فشل الحصار .

إن فشل الحصار العثماني الثاني لفينا سنة ١٦٨٣م ، قد عاد سلبا ليؤثر في استراتيجية الامبراطورية العثمانية في أوربا .. وقد أضعف بدون شك ، كل من سياستها الامبراطورية وعلاقاتها الخارجية على مستوى السلم والحرب في أوربا بصورة خاصة . كما واضعف كيانها بصورة عامة على المدى البعيد كامبراطورية واسعة الأطراف . وكان فشل الحصار على النحو الدراماتيكي الذي رأينا ، من أحد الأسباب التاريخية الأساسية في بدء عصر انهيار الدولة كامبراطورية حربية من طراز قوي معروف إلى طراز أضعف مما كانت عليه في السابق ، رغم بقاء حركاتها الحربية قوية وسارية المفعول مع الهابسبورك في أعماق هنغاريا .. وفتحت جبهات عديدة بوجه العثمانيين : الجبهة النمساوية والجبهات الفينيسية والبولندية . ويعتبر كل من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر هو عصر انهيار الامبراطورية العثمانية ، الذي اختتمته أوربا وأطبقت عليه .. ووضعت من خلال أحداثها الساخنة في العالم النهاية لحياة الامبراطورية العثمانية ، وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكل من العقدين الأولّين من القرن العشرين هو عصر سقوطها ، والذي ساهمت أوربا في خلقه مساهمة فعالة .. وقفلته مداخلات كل من أحداث الحرب العالمية الأولى وآثارها ونتائجها .

يعدّ الحصار العثماني الثاني لفينا ، من أعتى الحوادث التاريخية في حياة كل من العثمانيين وأوربا على حد سواء .. ولم يكتب أحد من المؤرخين الأوربيين في تاريخ أوربا القرن السابع عشر ، من قريب أو بعيد ، ما لم يشر إلى هذا الحصار ، وأثر فشله على أوربا . ويعتبر كل من السلطان محمد الرابع الذي جرى الحصار في عهده ، ووزيره الأعظم قره مصطفى باشا ، قائد الحملة وبطل الحصار قد تحملا المسؤولية أمام التاريخ في فشله ، وما قاد ذلك من نتائج .. اذ رسمت تلك النتائج ، البداية لخط نكوص الامبراطورية ، وضعف إرادتها القوية التي كانت عليها في أوربا

شمالا وشرقا ، في حين رجع ليوبولد الأول امبراطور النمسا إلى عاصمته المتوعكة ، والذي لا يذكره التاريخ ، إلّا ذلك الرجل الذي كان قد لاذ بالفرار في أيام حاسمة من المحنة العاصفة لامبراطوريته التي كانت على قاب قوسين أو أدنى من السقوط المحتم .. ذهب هارباً ، تاركا مصير بلده وشعبه بيد من كان يحاصرها ، رغم أن فراره كان مقترنا باستنجاده بقوى التحالف الأوربية التي لولا مصالحها ما كانت لتقف بجانبه .. ولو بقي في عاصمته ، مستجيبا لتحدي التاريخ ، لدخل أبواب التاريخ كبطل للحصار ، بدل أن تذهب البطولة ليتمثلها الوزير الأعظم قره مصطفى باشا ، الرجل الذي ما قبلت أخلاقه ، وخبراته ، وشرفه السياسي والعسكري .. أن تلطّخ جميعها ، عندما كان بمقدوره اكتساح العاصمة (فينّا) بجيوشه الجرارة والمتنوعة ، ويستبيحها بمن فيها .. لتكون جميع أوربا وممالكها لواحقها بعد ذلك طوع يديه . لكنه الرجل الذي عاد بعد إخفاقه المرير ليواجه حكم الاعدام ، إذ حمّل المسؤولية لوحده في ذلك الاخفاق . فاعدم وهو في التاسعة والأربعين من عمره .. وبعد عهد وزاري أعظم جاوز السبع سنوات .. وهو عهد طويل بالقياس إلى غيره من العهود الوزارية في السياسة العثمانية . وهو العهد الذي تسلمّه بعد إدارته الفعّالة لجزيرة كريت ، وهو العهد الوزاري الذي شغل العديد من الأحداث التاريخية الهامة التي كان يتقاسم بطولتها على الساحة الداخلية للامبراطورية ، أو يتمثل بطولتها بنفسه على الساحة الخارجية لها كما جرى مثلا في كل من الحربين : الروسية الأولى والحرب مع الهابسبورك . وكان الرجل مخططا قبل نهايته المأساوية أن يعيد بناء جيشه من جديد .. ويبدأ بغزو أوربا من جديد ، ومن المحتمل أنه كان يفكر بإعادة تكافؤ المعادلة لصالح إمبراطوريته ، ويحتفظ بروح قوى التوازن الذي افتقدته قواته في الساعات الحرجة من المعركة المذهلة التي لم يكن بمداها وسرعتها ومباغتة الأعداء له بمتوقع لها .. وذهبت جميع خططه في استعادة قواه من جديد لمواجهة أوربا ادراج الرياح ، لأن حبل المشنقة كان بانتظاره بأمر من السلطان .. في حين عاد ليوبولد الأول إلى فينا ، والعالم الأوربي يدري بأنه الامبراطور المهزوم ، الذي لولا قوى تحالف أوربا ، وجهودهم المستعجلة في الساعات الأخيرة للحسم ، ما كان باستطاعته أن يعود لعاصمته ، أو يراها من جديد على وجه الاطلاق .

لقد كان حصار فينا سنة ١٦٨٣م ، حقا بالنسبة لأوربا الممزقة ، بمثابة الجرس الذي قرعه العثمانيون على أبوابها المهزوزة .. والذي تناقلت أصداؤه جميع بلدانها وأقاليمها ولواحقها وجزرها .. واستفاقت من خلاله على أحوالها السياسية والاقتصادية المتعبة .. وتراءت لهم حجم الهوّة التي كانت تفصل بعضهم عن البعض الآخر . ثم أطلعتهم بدون شك على حجم القوة والمراس وعظمة الامتداد الذي اتصفت به الامبراطورية العثمانية في أوربا .. ووصولها لكي تستقر في (فينا) قلب أوربا . وقد جرى ذلك الامتداد العثماني في عمق أوربا بين نقلتين تاريخيتين : نقلة الحصار العثماني الأول الذي فرضه السلطان سليمان القانوني على فينّا سنة ١٥٢٩م في عصر إزدهار الامبراطورية ، ونقلة الحصار العثماني الثاني الذي فرضه قره مصطفى باشا على فينّا سنة

١٦٨٣م .. والفجوة الزمنية بين كل من النقلتين تشغل (١٥٤) عاما ، لم تهدأ أحوال الصراع يوما بشكل حاسم بين الطرفين . وما كان يشغل الامبراطورية العثمانية عن توسيع رقعتها في أوربا ، إلّا حلقة ذلك الصراع المزمن والعنيف بينها وبين الفرس الصفويين على الجبهة الشرقية بغرض الحفاظ على كل من العراق وأرمينية من سيطرة الفرس عليهما ، وأطماعهم القديمة فيهما(١٣) .

رغم أن الجيش العثماني في حملته على العاصمة (فيّنا) وحصاره الثاني لها ، لم يقتصر تركيبه الفئوي على القوى الانكشارية فقط .. إذ ضمّ السباهية وتاتار كرميا (القرم) ، والهنكار والسلاف . إلّا أن العدد الذي جمعهم والمقدر بـ (٢٤٠) ألف محارب ، يبدو أنه مبالغ فيه تاريخيا حتّى عند المؤرخين الأتراك أنفسهم . وقد وجد أغلب من درس هذا الحصار من المؤرخين الأوربيين في هذا الرقم الأساس الذي عوّلوا في شروحاتهم — كما هو الحال عند المؤرخ V. Melegeri والمؤرخ J. Stoye — وبنوا على ذلك « معجزة انتصار جيوش أوربا على الجيوش العثمانية الكبرى والعظيمة » على حد ذكرهم . كما وقدّروا الموقف التاريخي لصالح جيش قوى التحالف الأوربي الذي جمع عدده أقل من ثلث عدد الجيش العثماني في ملاقاته أيّاه ، ومعركته الفاصلة معه . ويتضح لنا من سير أحداث هذه المعركة النهائية بأن التكافؤ العددي ، والتوازن العسكري هو الذي ساد بين كل من الطرفين المتنازعين .. خصوصا إذا ما علمنا بأن الدولة العثمانية جابهت تحالفا أوربياً سياسيا واقتصاديا وحربيا ضمّ العديد من الدول الأوربية : بولندا والنمسا والمقاطعات الألمانية .. ثم ايطاليا وأسبانية . من طرف آخر ، فإنه ليس من المعقول بأن الدولة العثمانية قد زجّت بكل قواها الحربية ، وثقلها من الجيش في حملتها على (فيّنا) .. وتركت العديد من جبهاتها الحربية الساخنة بدون دفاعات وقوى وأهمها الجبهة الروسية . ويبدو لنا أن المؤرخين قد بالغوا بشأن الرقم الحقيقي لاعداد الجيش العثماني في حملته الثانية على فيّنا .

يعتبر حصار قره مصطفى باشا لـ (فيناّ) سنة ١٦٨٣م ، هو آخر حلقات الهجوم الامبراطوري القوي في عمق أوربا ، أفاقت أوربا على صدى مدافعه .. ولا زالت تحمل ذكريات تلك الأحداث التاريخية الجسام ، وتشعر بالرهبة من مؤثراتها وآثارها حتى هذا اليوم ، وبعد مرور ثلاثة قرون عليها بالضبط .

سؤال أخير ينقلنا إلى مجال التصور بخصوص متغيرات التاريخ وحدوث التعاكس ، إذ يقول ماذا لو فتحت العاصمة (فيّنا) على أيدي العثمانيين ؟

إذا كانت أوربا ترى في عودة ليوبولد الأول إلى عاصمته بعد فشل الحصار ، هي المعجزة كما جاء على لسان لويس الرابع عشر ملك فرنسا ... فان العثمانيين لم يكن يتراءى لهم أبدا بأن فتح العاصمة النمساوية (فيّنا) هو المعجزة بذاتها .

وطالما يمعن مؤرخ الحصار النظر في هذا السؤال : ماذا لو فتحت فيّنا ؟ نظرا لأهميته البالغة من

نواح تفوق الحصر والتفكير معا ، أولها أن تاريخ أوربا والعالم كانوا ستيخذ له سبلا أخرى خلال العصر الحديث ، وما جرى عبر سنواته وعقوده وأجياله من احداث وعلاقات بين الدول والشعوب ... مما ينقل اهتمامات الدارس إلى أمور شتّى ، أهمها : الدين ، الأفكار ، العادات ، التجارة ، الحرب والسلم ، الاستعمار القديم والحديث ، الثقافات ، الثورات .... وغير ذلك كثير .

ولكن قبل كل هذا وذاك ، ولو تحقق فتح العاصمة فيّنا ، لغيّر ذلك مجرى التاريخ ، ولوضع بمنزلة فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، لأن القسطنطينية كانت بمثابة الجدار الأوربي الأول ، في حين غدت العاصمة فيّنا هي الجدار الأوربي الثاني ، ولو سقط الجدار الثاني بيد العثمانيين لقادهم ذلك إلى اخضاع أوربا قاطبة ، وهذا ما كان يهدفون إلى تحقيقهُ منذ عهد السلطان سليمان القانوني . ولو تّم فتح العاصمة (فيّنا) منذ عهد السلطان القانوني لساد الاسلام في أوربا . ولو تمّ فتح العاصمة (فيّنا) في عهد السلطان محمد الرابع على يد قره مصطفى باشا ، لأثر الاسلام في أوربا . ولو تّم ذلك ، ما كان الناس في أوربا ليختلفوا بغير الناس .. ولكن لوجدنا بأن حضارة أوربا وأفكارها وثقافاتها اليوم هي حضارة غربية ولكن من نوع آخر !

الهوامش :

1. For details: see, S. Runciman, **The Fall of Constantinople 1453.** Cambridge, 1965.
2. Vienne or Wein is (يج) in old Turkish. Austria is (نمجه) in old Turkish and old Slavic. (النمسا) ,the name of Austria in Arabic came from this Turkish term. For details; see, Sayyar K. Al-Jamil, **A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920 - 1226 A.H. = 1514 / 1515 A.D. 1811/1812 A.D.).** Ph.D. Thesis. It is preserved in the Library of St. Andrews University, Scotland. vol. I (= Introduction and Notes), p.175.
3. **Islam Ansiklopedesi,** Istanbul, 1944 in progress, vol. III, pp. 111-112. see also, R.B. Merriman, **Sulaiman The Magnificent 1520-1566**, Harvard, 1944.
4. Cf. S.K. Al-Jamil, vol. I, pp. 250-1; vol.II (= Text), p. 224; vol. III (= Apparatus Criticus), p. 702.
5. Lord Eversley, **The Turkish Empire from 1288 to 1914,** London, 1923, pp. 162-3; and cf. **The Encyclopaedia of Islam,** 2nd ed. vol. III, p.983.
6. الوزراء الأعظم للامبراطورية العثمانية خلال عهد السلطان محمد الرابع قبيل تولي عائلة كوبرلو الوزارة العظمى هم :

١ ــ مراد باشا	١٠٥٩ ــ ١٠٦٠ هـ
٢ ــ ملك أحمد باشا	١٠٦٠ ــ ١٠٦١ هـ
٣ ــ سياووش باشا	١٠٦١هـ
٤ ــ محمد باشا	١٠٦١ ــ ١٠٦٢ هـ
٥ ــ ترونجو أحمد باشا	١٠٦٢ ــ ١٠٦٣ هـ
٦ ــ درويش محمد باشا	١٠٦٣ ــ ١٠٦٤ هـ

٧ ــ ابشير مصطفى باشا ١٠٦٤ ــ ١٠٦٥ هـ
٨ ــ مراد باشا ١٠٦٥هـ
٩ ــ سليمان باشا ١٠٦٥ ــ ١٠٦٦ هـ
١٠ ــ حسين باشا ١٠٦٦ هـ
١١ ــ سر حسن مصطفى باشا ١٠٦٦ هـ
١٢ ــ سياووش باشا ١٠٦٦ هـ
١٣ ــ بونوكري محمد باشا ١٠٦٦ ــ ١٠٦٧ هـ

أما الوزارة العظمى عند عائلة كوبرلو فقد تمثلت عند :

١٤ ــ كوبرلو محمد باشا ١٠٦٧ ــ ١٠٧٢ هـ
١٥ ــ كوبرلو زاده فاضل أحمد باشا ١٠٧٢ ــ ١٠٨٧ هـ

وأعقبهما في الوزارة العظمى بطل الحصار العثماني الثاني لفينا :

١٦ ــ قره مصطفى باشا المرزيفوني ١٠٨٧ ــ ١٠٩٥ هـ

راجع قائمة (الوزراء الأعظم = Grand Vizirs) للامبراطورية العثمانية التي حققها كاتب هذا البحث في اطروحته :

Cf. S. K. Al-Jamall, vol. I, Appendix No. 4 "Grand Vizirs of the Ottoman Empire 1451-1922 A.D. = 855-1341 A.H.", pp. 345-352.

7. For details; see, "Koprululer" article in **Islam Ansiklopedesi,** vol. VI, pp. 892-908; see also, Ahmed Rafik Altinay, **Koprululer,** 3 vols., Istanbul, 1331 A.H. = 1913 A.D.
8. Cf. **The Encyclopaedia of Islam,** Ist ed., vol. II, "Koprulu" article written by France Babinger, pp. 1059-1062.
9. Shaw, S. 1978, vol. I, "The First Russian War", p.214; for details; see, Thomas M, Barker, **Double Eagle and Crescent: Vienna's Second Turkish Siege and its Historical Setting,** Albany, New York, 1967.
10. Shaw, S. 1978; the diplomatic background to the Ottoman Siege of Vienne (1683) is studied in Thomas M. Barker, 1967. pp. 21-40.
11. Silahdar. Fendakli, **Silahdar Tarihi,** ed. by Ahmet Rafik., Istanbul, 1928, vol. I. p. 737; see also, al-Jamil S.K., vol. II, p.294, and vol. III p.781.
12. For details; see the principle of the late seventeenth century is the **Tarih** (History) of Mehmet Rasit, 5 vols., Istanbul, 1865; see also, J. Stoye, 1965, pp. 112-114.
13. Sayyar K. Al-Jamil, "The Ottoman Domination of Mosul and al-Jazira District, 1516 A.D.", **Mesopotamia Quarterly Journal,** No. 30. 1980, pp. 189-202 (= Part one of the article); and, No. 31, 1980, pp. 325-349 (= Part two of the article).

المراجع الاجنبية

Barber, N. **The Sultans,** New York, 1973.

Barker, Thomas M. **Double Eagle and Crescent: Vienna's Second Turkish Siege and its Historical Setting,** Albany, New York, 1967.

Creasy, E.S. **History of the Ottoman Turks,** Reprinted in Beirut, 1961.

Davies, Norman, **God's Playground: A History of Poland,** Oxford, 1981.

Eversley, Lord,	**The Turkish Empire form 1288 to 1914.** London, 1923.
Hammer-Purgstall, Joseph Von.	**Geschichte der Osmanischen Reiches,** vol. 6, Wien, 1828.
Inalçik, Halil,	**The Ottoman Empire: Conquest, Organization and Economy.** (Collected Studies). London, 1978.
Islam Ansiklopedesi,	Istanbul, 1941 in progress, 11 vols.
Al-Jamil, Sayyar K.	**A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-'Umari (920-1226 A.H. - 1514 / 1515 A.D. - 1811 / 1812 A.D.),** Ph. D. Thesis, 3 vols. It is preserved in the Library of St. Andrews University, Scotland -U.K.
	"The Ottoman Domination of Mosul and al-Jazira District, 1516 A.D.", **Mesopotamia Quarterly Journal,** No.30, No.31, 1980.
Krentel, Richard F.	**Kara Mustafa vor Wien.** Vienna, 1955, Cologne, 1959.
Kunt, M.	**The Koprula Years 1656-1661,** Ph. D. Thesis. It is preserved in the Library of Princeton University, 1972, U.S.A.
Melegeri, Vezio.	**Great Military Sieges.** London, 1981.
Merriman, R.B.	**Sulaiman The Magnificent, 1520-1566.** Harvard, 1944.
Al-Muhibbi, Muhammad Amin.	**Khulasat al-Athar fi A'yan al Qarn al-Hadi- 'Ashar.** vol. 3. Cairo, 1868.
Pennington, D.H.	**Seventeenth-Century Europe.** London, 1970.
Pitcher, D.E.	**An Historical Geography of the Ottoman Empire from earliest times to the end of the sixteenth Century.** Leiden, E.J. Brill 1972.
Haşit, Mehmet,	**Tarih,** 5 vols. Istanbul, 1865.
Runciman, S.	**The Fall of Constantinople, 1453.** Cambridge, 1965.
Shaw, Stanford J.	**History of the Ottoman Empire and Modern Turkey.** vol. 1 (-Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire, 1280-1808), Cambridge, 1978.
Silahdar, Fendakli,	**Silahdar Tarihi,** ed. by Ahmet Rafik. Istanbul, 1928.
Spielman, John P.	**Leopold I of Austria.** Rutgers University Press, 1977.
Stoye, J.	**The Siege of Vienna.** Collins, 1965.
The Encyclopaedia of Islam	Ist. ed., 4 vols. Leiden-London, 1913-38.
The Encyclopaedia of Islam	2nd ed., in progress. Leiden - London, 1954.
The New Cambridge Modern History.	vol. VI, Cambridge, 1970.
Altinay, Ahmed Rafik.	**Koprululer,** 2 vols. Istanbul, 1331 A.H. 1913 A.D.
Toynbee, A.J.	**A Study of History.** vol. 1, Oxford, 1934.
Uzuncarsili, Ismail.	**Osmanli Tarihi.** vol. II, Ankara, 1956.